كتبها Administrator

الأربعاء, 01 يناير 2014 22:25 - تم التحديث فى الخميس, 09 يناير 2014 22:09

صور السلاطين العثمانيين

ملاحظاتى على الدولة العثمانية

أ . د . حامد طاهر

للدولة العثمانية تاريخ خاص (1300 – 1924) يكاد يجعلها متفردة بين الدول الكبرى التى قامت وازدهرت فى إطار الحضارة الإسلامية . وأول ما يلاحظ على هذه الدولة : نشأتها السريعة ، وحركتها الخاطفة فى معظم الفتوحات التى حققتها ، وهو الأمر الذى جعلها خلال فترة قصيرة تسيطر على جزء كبير من آسيا، وتحتل نصف أوروبا ، وتستولى على ممتلكات الخلافة العباسية فى العراق والشام والحجاز واليمن ، ومصر وطرابلس وتونس والجزائر حتى المغرب على شاطئ المحيط الأطلسى . وفى فترة قوتها وحيويتها ، كانت هى المتحكمة فى البحر الأبيض المتوسط سواء فى معظم موانيه ، أو فى كل الجزر الموجودة به .

وقد درجت الدولة العثمانية فى مرحلتها الأولى على أن تسمى نفسها (سلطنة) ، وحاكمها (سلطانا) . واستمر الحال على ذلك حتى تغلب السلطان سليم الأول على المماليك فى مصر سنة (1516) واصطحب معه آخر خلفاء بنى العباس، الذى تنازل له عن لقب (خليفة) ، وكان يحمله اسما فقط ، فأصبح الحكام العثمانيون يجمعون بين لقبى (سلطان) و (خليفة) . وكما أطلقوا على سدة الحكم لقب (الباب العالى) أطلقوا على حكمهم لقب (الخلافة العظمى) ..

وفى الآونة الأخيرة ، أتاحت لى الظروف فرصة الاطلاع على تاريخ الدولة العثمانية ، والمعالم الحضارية التى أرستها ، وكذلك أعمال حكامها المبهرة أحيانا، والمؤسفة فى أحيان أخرى . وقد اعتمدت فى ذلك على العديد من المصادر والمراجع ، يهمنى أن أذكر اثنين من أهمها على الاطلاق : الأول هو (تاريخ الدولة العلية العثمانية) الذى ألفه الزعيم الوطنى محمد فريد ، وظهرت طبعته الأولى سنة (1893) ، والثانى بعنوان (الدولة العثمانية : تاريخ وحضارة) لمجموعة متميزة من مؤرخى الأتراك وعلمائها ، وأشرف عليه أكمل الدين احسان أوغلى ، وظهرت ترجمته العربية بإشرافه أيضا سنة (1999) ، فى مجلدين ضخمين يبلغ كل منهما ثمانمائة صفحة .

والواقع أن هذه الجولة العلمية كانت طويلة وشاقة ، لكنها ممتعة ، فقد حصلت فيها على معلومات جديدة ، وأكدت لنفسى معلومات كانت غائمة . ونظرا لأننا فى مصر قد ارتبط تاريخنا المتوسط والحديث بتاريخ الدولة العثمانية ، حتى أن إلغاء الخلافة العثمانية سنة (1924) قد أحدث حزنا بالغا وأسفا شديدا لدى المصريين ، وقد رثاها الشاعر الكبير أحمد شوقى بواحدة من روائع قصائده ، كما يذكر للزعيم الوطنى مصطفى كامل أنه كان يدعو للتحرر من الاحتلال البريطانى ، ويتمسك فى نفس الوقت بالتبعية للخلافة العثمانية .

وعلى الرغم من قيام النظام الجمهورى فى كل من تركيا سنة (1923) ، ومصر (1954) ، فإن بعض الأصوات ، وهى ليست قليلة ، مازالت تتطلع إلى عودة تلك الخلافة ، وإحيائها من جديد ، خاصة وأن البلاد الاسلامية فى ظلها كانت وحدة متماسكة يعمل لها الخصوم ألف حساب ، أما الآن فقد ظهرت القوميات التى فرقتها ، وحولتها بتدخل الأجانب إلى كيانات صغيرة ، وأحيانا متحاربة ، يقاتل بعضها بعضا ، وأصبح المقسم منها معرضا للتقسيم إلى كيانات صغرى معرضة هذه المرة للتلاشى تماما !

لكن هل يمكن تحقيق هذا الإحياء ؟ وكيف يحدث ؟ وبأى الوسائل ؟ ثم ما هى الدولة المؤهلة اساسا للقيام أولا بذلك ؟ وهل يمكن أن تحوز على موافقة سائر الدول الاسلامية ؟ ثم هل تتيح لها ظروف الزمان والمكان الحالية فرصة كافية وملائمة لذلك ؟ وكيف سيكون رد فعل الدول الأقوى فى العالم المعاصر من إحياء الخلافة مرة أخرى ؟

وبالطبع لا توجد إجابات صريحة ومحددة عن هذه الأسئلة ، وإن كان من الملاحظ أن الذين ينادون بالإحياء يمتلئون بالحماسة ، لكنهم يفتقرون إلى القدرة على الانجاز ، كما تنقصهم المعرفة التاريخية التى تزودهم بالتبصر الواعى الذى يستفيد من تجارب الماضى ، ويتمكن من استيعاب قوى الحاضر ، ويتطلع إلى استشراف المستقبل . ومن هنا تأتى أهمية القراءة التى قمت بها فى تاريخ الدولة العثمانية ، والتى خرجت منها بمجموعة لا بأس بها من الملاحظات ، أضعها بين يدى القارئ ، دون أن أزعم بأنها حقائق حاسمة ، وإنما هى مجرد ملاحظات .

ولكى أبدأ من البداية ، يمكن أن أسأل أولا : كيف قامت الدولة العثمانية ؟ والجواب : بالصدفة البحتة . فقد وقف أحد زعماء القبائل الآسيوية على تلة بجانب نهر ، يشاهد حربا دائرة بين جيشين ، وحين أدرك قرب هزيمة أحدهما بسبب ضعفه ، دفعته شهامته إلى أن يقوم هو وأتباعه لمناصرة الجيش المهزوم ، حتى تمكن من الانتصار على خصمه . وعرفانا بفضله ، منحه الحاكم اقطاعا من الأراضى ، وأدخله فى نسيج جيشه ، بل جعله فى مقدمته بسبب بطولته وشجاعة أتباعه . هذا الرجل اسمه (ارطغرل) ، وكان له ابن شاب اسمه (عثمان) أحب ابنة الحاكم فزوجه إياها ، وقد أثبت هذا الشاب شجاعة فائقة فى فتح القلاع المحيطة ، فكانت مكافأته الحصول على مزيد من الإقطاعات ، وأصبح اسمه يضرب على العملة . وعندما توفى الحاكم أصبح عثمان هو الحاكم الفعلى ، وابتدأ به تاريخ العثمانيين ..

أما ملاحظاتى على هذا التاريخ ، وبعض معالمه ، فيمكن إجمالها فيما يلى :

1 ـــ أن الدولة العثمانية كان لديها جيش على مستوى عال من القوة البدنية وحسن استخدام السيوف والرماح ، بالإضافة إلى تصميم فى التغلب على الخصوم وإحراز النصر . ومما كان يزيد من حماسة الجنود وجود السلطان نفسه معهم فى موقع القيادة ، ومشاركته لهم فى العمل الحربى .

2 ـــ أن المساحات الشاسعة التى ضمتها الدولة العثمانية إلى أملاكها قد اشتملت على شعوب وأجناس مختلفة الأعراق واللغات والتقاليد والأعراف ، بالإضافة إلى الأديان . ولهذا السبب لم تكن مستقرة أبدا تحت حكم العثمانيين ، بل كانت تنتهز أدنى فرصة من الضعف والتراخى حتى تعلن استقلالها ، وتعيد تحالفها مع الأعداء .

3 ـــ أن هذه المحاولات المستمرة من الاستقلال والخروج عن سلطان الدولة، جعلت العثمانيين فى حالة حرب دائمة لاسترداد الممالك الثائرة ، وإنزال العقاب بالأمراء والملوك الذين خانوا معاهدتهم مع الدولة . ولما تكاد تخلو سنتان أو ثلاث من حروب عثمانية مع الخصوم .

4 ـــ أن نظام الحكم طوال عهد الدولة العثمانية قام على التوريث ، الذى كان سائدا فى العالم كله . ويقوم هذا النظام على أن يتولى الأبناء الذكور الحكم بعد آبائهم . وقد تراوح الأمر بين أكفأ الأبناء وأكبرهم سنا ، حتى انتهى الحال إلى تولية الأكبر سنا ، بشرط أن يكون راشد العقل .

5 ـــ أن نظام التوريث على الرغم من عيوبه وتعارضه مع روح الاسلام قد يكون له بعض المزايا ومن أهمها : عدم تطلع القادة ورجال الدولة إلى الصراع على منصب الحاكم أو السلطان ، وهو الأمر الذى جعل المؤامرات أو المغامرات حول هذا المنصب نادرة أو شبه معدومه ، أما أهم عيوبه فهو أنه ترك للصدفة البحتة صعود شخص قوى وعادل إلى سدة الحكم ، كما أنه أوقع العثمانيين فى جريمة نكراء ، وهى جواز قتل الإخوة لكى لا ينازعوا الابن الحاكم فى السلطة ، وقد حدث ذلك مع الأسف بموافقة علماء السلطنة . ورد فى (قانون نامه الفاتح) : " أن الله يسر السلطنة لكل واحد من أولادى . ولأجل تأمين نظام العالم فإن قتل الإخوة مناسب ، حتى إن أكثر العلماء أجازوه . فليعمل به " !

6 ـــ أن الجيش الذى اعتمدت عليه الدولة العثمانية فى فتوحاتها قد حظى منها بكل الرعاية والاهتمام ، وكان يتم توفير سلاحه ولوازم ضباطه وجنوده ومكافأتهم بكل سخاء ، أما الجزء الأهم من هذا الجيش فقد تمثل فى طائفة الانكشارية ، الذين كانوا يؤخذون من شباب الأسرى ويجرى تدريبهم عسكريا ، ويسمون بأبناء السلطان ، بحيث لا يدينون لأحد سواه بالولاء الكامل . وإليهم يرجع الفضل الأكبر فى معظم الانتصارات التى حققها العثمانيون فى حروبهم ، ولكنهم كانوا أيضا يقفون عائقا فى طريق تحديث النظام العسكرى نتيجة تمسكهم بتقاليدهم الموروثة.

7 ـــ أن العثمانيين اعتمدوا فى تطوير أسلحة جيشهم على بعض المتخصصين وذوى الخبرة من الأجانب وخاصة الألمان والإنجليز ،

الذين صنعوا لهم مدافع أقوى ، وسفنا حربية ذات قدرة كبيرة على المناورة لكى تناسب طبيعة الحروب التى خاضوها . لكن الحق يقال إنهم قد قاموا هم أنفسهم بعد ذلك بتصنيعها فى مصانعهم .

8 ـــ أن الدولة العثمانية التى استمرت حوالى ستمائة سنة قد حكمها (36) حاكما من أسرة واحدة ، وقد تراوحت مدة حكم أحدهم من سنتين إلى ما يقرب من خمسين سنة . ومن الواضح أن طول فترة الحكم لدى بعضهم قد أتاح له إجراء إصلاحات ادارية وقانونية فى الدولة ، وخاصة عندما كانت وتيرة الحروب تهدأ قليلا .

9 ـــ أن الطابع العام للدولة العثمانية كان اسلاميا من حيث الظاهر ، لكن ذلك لم يمنع قيام السلاطين بإصدار قرارات أو اتخاذ إجراءات مدنية بالكامل ، تبعا لتطور الحياة وتغير الظروف . ومن ذلك على سبيل المثال ما قام به محمد الفاتح من وضع أول مبادئ القانون المدنى ، وقانون العقوبات حيث أبدل العقوبات البدنية (أى السن بالسن والعين بالعين) وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية معينة أتمها السلطان سليمان القانونى فيما بعد . ومن ذلك أيضا قيام الدولة بإستحداث رسوم للمحاكم سنة (1393) .

10 ـــ أن اهتمام الدولة العثمانية بنشر الإسلام فى البلاد التى استولت عليها لم يكن فى الحقيقة هدفها الأساسى ، وإلا لكانت شعوب هذه البلاد قد أسلمت ، وظلت متعاطفة مع العثمانيين حتى اليوم ، لكنهم كانوا يقتصرون على بعض المظاهر الخارجية مثل إقامة مسجد ، وحمامات ، وتكايا ، دون انشاء مدارس أو بث دعاة يعرّفون الناس - وخاصة النشئ - بحقيقة الإسلام ، ومبادئه السامية .

11 ـــ أن ما تم تحقيقه بالقوة المسلحة لا يلبث أن ينتقض بالقوة المسلحة المضادة لها . وهذا ما لم تدركه جيدا الدولة العثمانية طوال فترة سيطرتها على الممالك المجاورة . وكثيرا ما كانت تعقد معاهدات دبلوماسية لا تلبث الأطراف الأخرى أن تنقضها ، والتخلص

من تبعاتها. وهذا ما حدث مع كل من المجر وبلغاريا وفرنسا واسبانيا وانجلترا.

12 ـــ غطى اهتمام الدولة العثمانية بالصراع المستمر مع الدول الأوربية فى غرب أوربا على اهمالها للخطر الكامن فى روسيا، والتى كانت تطمح قبلها إلى الاستيلاء على ممتلكات الدولة البيزنطية، ومنها القسطنطينية نفسها، وقد ظلت تنتهز الفرص حتى هاجمت واستولت على معظم ممالك الدولة العثمانية كما كانت جاهزة دائما للتحالف مع أعدائها الأوربيين.

13 ـــ أن التسلل الخطير فى كيان الدولة العثمانية تسرب إليها من خلال الامتيازات الأجنبية التى أعطيت لبعض البلاد المعادية للدولة فى فترات الصلح المؤقت. وقد استطاع التجار الأجانب أن يطلعوا على الأحوال الداخلية للعثمانيين، وينقلوا المعلومات الحساسة عنهم للدول التابعين لها، ومنها وقفت هذه الدول على نقاط الضعف فى الدولة العثمانية.

14 ـــ أن العداء المستحكم لدى الدولة العثمانية ضد أعدائها الأوربيين جعلها تحجم عن متابعة تطورهم العلمى والفكرى، والذى تبلور بقوة خلال القرن السابع عشر، حيث شهد بزرغ المنهج التجريبى الحديث، وما نتج عنه من ابتكارات ومخترعات غيرت وجه الحياة فى أوربا، ونقلتها للأمام نقلة نوعية كبرى، جعلتها تثبت جيدا فى مواقعها، بل وتتقدم للاستعمار فى كل أنحاء العالم.

15 ـــ أن الدولة العثمانية بدأت تفقد سلطتها المطلقة على أوربا حين قامت هذه الأخيرة بتقوية أسلحتها، وتحديث أنظمة جيوشها وأساطيلها البحرية بصورة علمية مطردة، كما أنها راحت تستفيد من المعلومات الهامة والتفصيلية التى سبق أن جمعتها عن الدولة العثمانية والممالك الخاضعة لها بهدف اقتطاعها منها واحدة بعد الأخرى.

16 ـــ أن البلاد الأوربية كانت عند الضرورة تلجأ إلى المسيحية التى يمثلها البابا فى روما لتأكيد وحدتها وتضامنها ضد العثمانيين المسلمين . وهكذا كان للجانب الدينى أثره الذى لا ينكر فى تحزب الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية لإضعافها والثأر منها .

17 ـــ وفى المقابل من ذلك ، لم تقم الدولة العثمانية بحشد الممالك التابعة لها فى كل من آسيا وإفريقيا ، وهى كلها إسلامية ، لتقوية جبهتها الخارجية ، ويمكن القول هنا بأن العصبية العثمانية قد لعبت دورا هاما فى تقوقع الدولة على ذاتها ، والاعتماد فقط على جنسها ، وكان هذا أحد أسباب رغبة العرب فى الانفصال عنها .

18 ـــ اتسمت الاصلاحات التى قامت بها الدولة العثمانية ، وخاصة فى مرحلتها المتوسطة والأخيرة ، بالبطء الشديد . وكان يقابل ذلك سرعة فى الإيقاع لدى الدول الأوربية المناهضة لها . وهذا هو الأمر الذى نتج عنه تفاوت كبير فى درجة وحجم التقدم لدى كل منهما .

19 ـــ شاع فى مصر أنها هى التى استبدلت القانون الفرنسى بالقوانين الإسلامية ، والواقع أن قانون العقوبات العثمانى وضع على ضوء القانون الفرنسى (1840) وتم تعديله وتنفيذه الفعلى سنة (1851) . وكانت مصر حينئذ تابعة اسميا للدولة العثمانية .

20 ـــ كانت الحرب العالمية الأولى (1914- 1918) هى النهاية الفعلية لانطفاء عظمة الدولة العثمانية ، وذلك حين انحازت إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء الذين كان النصر إلى جانبهم ، والذين اقتطعوا منها جميع الممالك العربية بعد أن أشعلوا فيها روح العداء ضد الدولة العثمانية ودفعوها لإحياء قوميتهم العربية .

21 ـــ تم إلغاء السلطنة العثمانية أول نوفمبر سنة (1922) وأعلن النظام الجمهورى فى تركيا 29 نوفمبر (1923) ، ثم ألغيت الخلافة الإسلامية وطردت العائلة السلطانية خارج البلاد 3 مارس (1924) . وبذلك طويت صفحة دولة كبرى استمرت ستمائة عام ، وكان لها تأثير مباشر على ثلاث قارات متجاورة ، كما كان صعودها مثل البرق سريعا وخاطفا ، أما هبوطها فقد استغرق زمانا طويلا ، بسبب النظام المحكم الذى أقامه لها حكامها الأقوياء من أمثال : محمد الفاتح ، وسليم الأول ، وسليمان القانونى ..

22 ـــ وبعد .. فإن استعراض تاريخ الدولة العثمانية يقدم لنا - فى الوقت الحالى - صورة متكاملة لصعود الدول الكبرى وهبوطها . ومن الواضح أن لكل منهما أسبابه وظروفه التى تحيط به . ومنها ندرك أن ذكاء الحكام ويقظتهم الدائمة وحرصهم على تقدم شعوبهم وحسن اختيارهم لمعاونيهم ، كلها عوامل أساسية للتقدم ، كما أن الإهمال واللامبالاة والانغماس فى الشهوات إلى جانب سوء اختيار المعاونين ، وعدم مراعاة متطلبات الشعوب ، هى أيضا عوامل أساسية لهبوط الدول . ويظل دائما أن الإعداد الجيد للأمور هو الذى يؤدى إلى تنفيذها بصورة صحيحة ، كما أن الصدفة قد تتدخل أحيانا فى إحراز النجاح لكن الحاكم العاقل لا ينبغى له أن يعوّل عليها فى اطار عمله الدؤوب ، ووضع خطته المحكمة .

23 ـــ وأخيرا فإن قيام الدول الكبرى والامبراطوريات لا يتم بمجرد الرغبة ولا الأمانى ، ولكنه يتطلب فى البداية قوة عسكرية متكاملة تستطيع أن تبسط سيطرتها على مساحة شاسعة من الأرض ، وتؤكد هيبتها لدى جيرانها ، ثم يأتى بعد ذلك النظام السياسى والاقتصادى المحكم الذى تدير به شئون رعاياها ، بشرط أن يقوم ذلك على مبدأ العدل ، لكى تتجنب الاضطرابات الداخلية التى تؤدى إلى انهيارها .

كتبها Administrator

الأربعاء, 01 يناير 2014 22:25 - تم التحديث فى الخميس, 09 يناير 2014 22:09